

شخص الماضي الملتبسة هل تقود نضالات الشارع

فضيل بومالة

وجه الحراك الجزائري الذي نبت في تربة السلطة



● ظهوره اللماع في فترة حساسة من تاريخ الجزائر ينظر إليه، على أنه كان بمثابة غيث ثقافي، حيث كان التلفزيون يفتقر إلى البرامج المثيرة، ظهور يتكرر، اليوم، مع مشهد الإفراج عنه من سجن الحراش.



● انتقال بومالة إلى صف المعارضة ليس سوى تخندق جديد لاق ينتجه الحراك من الم المعاناة الحقيقية للمواطن الجزائري الذي لم يكن الإعلامي الناشر يعرفه اصلا عندما كان ينعم بخيرات النظام.



أبو بكر زمال
كاتب جزائري

بُرأت محكمة في الجزائر مطلع هذا الشهر مارس الجاري الإعلامي والأستاذ الجامعي الجزائري فضيل بومالة، الذي يعد واحدا من أبرز وجوه الحراك الشعبي، من تهمة "المساس بسلامة وحدة الوطن". ونشر ناشطون على مواقع التواصل الاجتماعي شريط فيديو لبومالة وهو يغادر سجن الحراش بالضاحية الشرقية للعاصمة وسط صيحات "تحيا الجزائر".

بومالة أكسبته العادة على الكلام المنمق المزخرف بمصطلحات تبقى المتلقي مشدودا وفاغرا فاه، قدرة هائلة على الخوض في كل شيء، من السياسة إلى الاقتصاد إلى الثقافة إلى الأنتروبولوجيا إلى الفلسفة وغيرها من المعارف التي يعرف مراجعتها وحده. ووحده يقرأها ويتعمق فيها ويفهم مراميها وفصوصها وحكمها وهو يمتحنها في الفسحات والمساحات التعبيرية التي مر عليها في التلفزيون أولا ثم في المؤسسات والبرلمانات الأجنبية وبعض الصحف والمواقع الكثيرة، ثم في صفحته على فيسبوك وأخيرا في قناته اليوتيوبية.

متلازمات لغوية

صاحب حذقة لغوية مبهره، خصومه يقولون إنها سفسطة من الطراز الرفيع، يدور جملا ومعاني تكاد تكون هي ذاتها، يعد صياغتها بلون واحد وخطاب واحد، والبعض الآخر يراه مناضلا من طراز خاص دفع ثمنا لسعيه نحو التغيير المشهود.

القطعية، الديمقراطية، الإنتلجنسيا، الحدائسة، متلازمات لغوية برع بومالة المولود في جيجل في استعمالها منذ أن أطل في التسعينيات من خلال حصته الثقافية الفكرية "الجليس" التي كانت تبثها القناة التلفزيونية الجزائرية. كانت أوقف مواضعها على شئتي الملل والنحل، خاض في كل شيء وتكلم مع ضيوفه في كل شيء، بلغة كانت مرات بسيطة ومرات بقيت حركا على نخب لم تنزل من عليائها إلا في ما ندر. نقاشات مريحة وبين تنظيمية وجدل معقم بروائح فلسفات غريبة يخرجها بومالة من قراءاته المتعددة، كما يقول، إلى آخر ما وصل إليه الفكر العالمي وما طحنه المطابع من كتب ومجلات متخصصة وعلمية.



برنامج بومالة التلفزيوني

الشهير لا يعرف أحد، حتى هذه اللحظة، لماذا أوقف فجأة ودون سابق إنذار. أفتى الكثيرون في أسباب لكن الرواية الوحيدة التي سر بها بومالة هي أن السبب كان غضب الرئيس بوتفليقة منه

كان ظهوره اللماع في تلك الفترة الحساسة من تاريخ الجزائر المعاصر بمثابة غيث ثقافي حيث كان التلفزيون يفتقر إلى مثل هذه الحصص النقاشية المثيرة مع وجود حصص أخرى ثقافية بمحتويات فلكورية أكثر منها حصصا تعنى بالحوار والأسئلة والنقاشات. كان هامش الحرية في برنامجه يقاس بالمسطرة، وهو يفهم الأمر جيدا، لأن أي تجاوز للخطوط الحمراء في تلفزيون عمومي تابع للسلطة وما يستتبع ذلك من أوامر وتعليمات والأخذ بالرأي والمشورة من أصحاب القرار الظاهرين والمتخفين، قد يكلف في أحسن الأحوال الإيقاف والإبعاد.

بالطبع كان بومالة يشتغل تحت مظلة ذلك الأمر بنوع من الأريحية، ولم يكن يقلق حيال الأمر، المهم أن يرسخ وجوده وصورتته في عيون المشاهدين وينفخ في عقولهم وفي مخيالهم كحاور لبق

عميق وحكيم وفاهم كل كبيرة وصغيرة من عظام الأمور ونوائبها وشواردها حتى في طريقة جلوسه والنظرة والتامل في ما يقوله الضيف وفي طريقة طرح الأسئلة عليه وجذبه إلى أطراف الظل لإخراج ما يمكن إخراجها من معلومات وكلمات. لم يكن يتوانى في الكثير من الأحيان عن استعراض عضلاته الفكرية في مشهدياته تنم عن نوع من الغرور، وما زالت هذه اللازمة ترافقه إلى اليوم حيث لا يترك مجالاً للسمع أو الرد وحين يتكلم أو يحلل أو يناقش أو يعطي تراه يحتكر الفضاء والمكان والساعة والزمن وينفرد لوحده مالكا للحق والحقيقة والصواب وما عداه لا تليق به الأحوال والمقامات.

ضلال رجالات النظام

استمر ذلك البرنامج لسنوات مر فيه من مر، وقيل فيه العجب، وتغلغل صورة بومالة في وعي الكثير من المشاهدين. توقف فجة دون سابق إنذار. وأفتى الكثيرون في أسباب ذلك، وزاد عمرو هنا في الرواية وأشاع زيد رواية أخرى. وظهرت العديد من الأقاويل عن خلفيات القرار، ولكن الرواية الوحيدة التي سر بها بومالة هي أن السبب كان غضب الرئيس بوتفليقة عليه. بل قال إن لوالده هذا الأخير كما روى له آنذاك رئيس مجلس الأمة الراحل بشير بومعزة هي من كانت وراء الأمر حيث لم تعد تطبق رؤيته على الشاشة. هكذا ببساطة.

رواية متواترة على لسانه، لا إسناد عينيا لها، فكلا الشاهدين اليوم تحت التراب، الوالدة وبومعزة، والرئيس السابق عاجز ومقعد ومختف، ولكن المؤكد أن القرار سيكون له تأثير بالغ على بومالة وسيكون نقطة تحول حادة في تعاطيه مع الواقع والراهن.

وعندما اعتقل أول مرة في سنة 2011 عندما لعل الربيع العربي في دول الجوار وخرج الشارع الجزائري تيمنا بما يحدث هناك، اشتكى للامن كما يروي أحد الذين كانوا معه من الاضطهاد والعوز اللذين طلاه جراء توقيف برامجه وقطع معاشه. انهض الذين كانوا يستجوبونه من الامر، كانوا يظنون أنهم سيرون فيه تلك الصورة الفريدة التي سوقها عن نفسه من خلال "الجليس"، مفكرا عضويا على رأي الغرامشيين، نقديا فيلسوفا ومحللا من الطراز الرفيع. كانوا ينتظرون سماع الحكمة والفلسفة والعقل والجمال والشعر، ولكنه كان يلوم بصوت فيه أنين وغصة ومرارة، ويتشير باليد، وتلك متلازمة أخرى مدروسة بعناية فائقة للفت الانتباه، إلى هناك، حيث الإصابع المبهمة الغامضة التي تحرك خيوط اللعبة، وهو الذي بقي واقفا ووفيا للنظام إلا أنه طرد بامر من الرئاسة عندما شغل وظيفة مكلف بالإعلام لمدة تقارب الشهرين في عهدة الأمين العام لحزب جبهة التحرير الوطني الأسبق عمار سعيداني سنة 2005 الملاحق اليوم من العدالة، حيث لم تكن آنذاك أي فرصة تنفس

لم يعارض الرئيس بوتفليقة، حين انضم بومالة كناطق رسمي إلى حملة الغريم الأيدي علي بن فليس، ما شكل ضربة قاصمة له للخروج نهائيا من نعيم النظام وكما يحلو له القول بعدها إنها كانت بداية التضييق عليه وعلى رايه المستنير، وبداية انشقاقه على منظومة الحكم لأنه لم يعد يصلح لاداء الوظيفة.

وظائف كانت دوما بمباركة أسيايد النظام وتحت أعينهم وفي كنفهم وفي ظلم، كمظلة الجنرال بتشين الرجل القوي في فترة التسعينات الذي وفر له التسهيلات المستترة منها والمعروفة كتزليمه ملتقى دوليا كبيرا حول ابن رشد، وإشرافه على مجلة فكرية عنوانها "ابن رشد" ممولة من طرف رجل أعمال مقرب من الجنرال، وفي هذا تبقى علاقته بالجنرال بتشين محوطة بظلال كثيفة مكتنفة بعدد من التاويلات من بينها السواء والطاعة للقوة والسيطرة التي كان يتمتع بها الجنرال بتشين، والاندماج إلى الشمال القسنطيني حيث التكتل والصحة والتعصب والمصالح الضيقة، وقد تعدت علاقة بومالة بالجنرال إلى أكثر من هذا الأمر، وكلفه هذا الأخير بنقل رسائل مشفرة للأمين العام لحزب التجديد الجزائري آنذاك

نور الدين بوكروح وقد كان بومالة عضوا فلقها للحد من الحملة التي شنها بوكروح على أعمدة الصحف كاشفا وفاضحا وقائع ما قال إنه فساد وعبث وتسلط يمارسه



سيرته المهنية لا تتعد عن شجرة السلطة، ومناصبه كانت دوما بمباركة أسيايد النظام، كما عندما وفر له الجنرال بتشين التسهيلات المستترة لينظم ملتقى دوليا كبيرا، وليشرف على مجلة يمولها رجل أعمال مقرب من الجنرال

الجنرال للتخويف والترغيب لمن يخالف الخط. كان ذلك في صيف 1998 صيف الصراعات التي القيت من علباء النظام وتكفلت بالمهمة النخب كل حسب موقعه، وقدفت كرة اللعب في الساحات وفي المواقع وفي الصحف وفي النوادي، عزابوها بومالة بوكروح وغيرهم من الأذرع.

لبست هذه اللعبة هي الوحيدة في سجل بومالة، بل يروي الإعلامي أميدة عياشي حادثة لقائه به بالصدفة عندما خرج من مكتب "كولونيل" مكلفا بمتابعة الإعلام والنشرات الإخبارية والإشهار والصحف وما يكتبه الكتاب والإعلاميون في المخابرات، كان ذلك قبل أن يحل أحد رموز المعارضة الشرسة على برنامج "الجليس"، وقد قبل إن الزيارة كانت بهدف المشورة ورسم خطة الأسئلة والحوار.

الحراك واجهة انتقام

الدولة الجديدة. العسكرية. صناعة المستقبل. النسق التراجعي. متناقضات الماهية. تدريب العقول. انتقال ديمقراطي مؤسسي حقيقي. مفاهيم جديدة ببدلة أنيقة طورها بومالة مما بشر به في برنامجه في الماضي، وما هو يزيناها في الوسائط التي تكاثرت وظهرت، وهي بحسبه أسرع وأفيد وأهم وتصلح لكل شيء. الوسائل تغيرت، وتبدل الواقع، وخرج الشارع لا يلوي على شيء. جال بومالة العالم في مؤسسات حكومية وغير حكومية، داخل الأجهزة وخارجها.

وتردد أنه زار البيت الأبيض والكونغرس، التقى بمن التقى وشخصيات معروفة ومنكرة، أخرى ظاهرة وسرية.

نسج علاقات وشبكات معقدة مع هيئات وتنظيمات عالمية. هنا لم يعد

بومالة منتج منظومة حياة دخلت النظام من بابيه الواسع، ضاميه يشهد عليه ويظل بطارده، علاقته المريبة بالعسكر الذين يهاجمهم اليوم، بعض الساسة الذين اشتغل تحت قبضتهم ثم اليوم انقلب عليهم بحدة. الهيئات الخارجية والأجهزة المعادية دوما في نظر السلطة للبلاد. الإسلاميون الذين ينظرون إليه تعلماني. العلمانيون الذين ينظرون إليه بعين خاصة. خصومه الذين يرون أنه يبدق في قبضة قوى غامضة. النخب التي تعتبره مثالا يقتدى به. والعوام الذين يسرون خلفه على سلس.

يحسب لبومالة أنه تحول إلى رمز من رموز الحراك، لم يصنع داخله، بل طوره النظام ليصبح كذلك، بعد أن ربي فيه وهم الحضور وبلاغة الكلام والقول، وأوصله إلى حد أن اعتبر نفسه حسب تصريحه لحظة خروجه من السجن شبيها بـ"النبي يوسف، بري من الذنب ولم يبرأ من إخوانه"، حين رد أنه "إنسان حر". وهذه لعبة أخرى يجيدها النظام ببراعة.

التأثير ينفذ ولا يقدر أن يحرك شيئا. الضغط سيكون من هناك في حلقات ذكر وسماح وانتباهات شفافة ومزينة بحقوق ومبادئ الإنسان والخوف على الكرامة والحرية.

بشر بلغته المعتادة المكررة بما حل البلاد من انتهاكات ودوس على الحياة. أسطوانات قديمة ومعرفة بالألف واللام. عسكر مستبد طاغ ونظام دكتاتوري يجب أن يحاسب ويدخل السجن ويوزل ولا بد أن يقف العالم حكومات وأفرادا ضده ويمنع عنه السلاح والمعونة والدعم والمساعدة. كانت تلك نغمته في البرلمان الأوروبي سنة 2010، اشتكى، وكاد يذرف الدموع، وطلب من الاتحاد الأوروبي الإعانة على إنشاء لجنة عربية أوروبية لحماية حقوق الجزائري المهضومة التي يعرفها بحكم انغماسه فيها حتى العظم. منطلقته التقى بومالة بالعبيد من المواطنين، وعلى رأس هؤلاء جميعا الجماعة تعنى بالتاريخ القديم لتلك المنطقة، جل أعضائها من الفرانكفونيين بشهادة بعض من التقى بهم "العرب"، نصح ونظم وأعطى التعليمات التنظيمية وغيرها من الأمور المتعلقة بالحراك. فهو مدرب جيدا ويعرف أساليب التاطير والتدبير وحسن المعاملة، حدد المعالم والشعارات وهي نفسها التي ما زالت تظلل إلى اليوم الشارع. "دولة مدنية وليست عسكرية"، نشط في فيسبوك وكتب مقالات وآراء ومشتورات قالت الغيابة إنها مساس بالمصلحة الوطنية أودت به إلى السجن. قصة بومالة مع الحراك طويلة وعريضة وكذلك مع النظام. أمضى في هذا الأخير بعضا من عمره بلا كلل أو ملل، خدمه بوعي وتحرك ضمن أطره وفتح له أبواب عدة للنظر والتوقع. وهو مثال للنخب التي استعان بها النظام مهما كانت تسميته في حروبه السرية المرتبطة دوما بالمصالح والجهوية والحفاظ على الوضع القائم. ولم يكن انتقاله إلى صف المعارضة وبالتالي إلى الشارع سوى تخندق جديد لاق ينتجه هذا الأخير من الم المعاناة الحقيقية التي تضرب وجوده منذ سنوات غاب فيها الفرد الجزائري المفعم بأحلام حياة أفضل الذي لم يكن بومالة يعرفه اصلا عندما كان ينعم بخيرات النظام.

عند الكثير من الجزائريين يظل بومالة منتج منظومة حياة دخلت النظام من بابيه الواسع، ضاميه يشهد عليه ويظل بطارده، علاقته المريبة بالعسكر الذين يهاجمهم اليوم، بعض الساسة الذين اشتغل تحت قبضتهم ثم اليوم انقلب عليهم بحدة. الهيئات الخارجية والأجهزة المعادية دوما في نظر السلطة للبلاد. الإسلاميون الذين ينظرون إليه تعلماني. العلمانيون الذين ينظرون إليه بعين خاصة. خصومه الذين يرون أنه يبدق في قبضة قوى غامضة. النخب التي تعتبره مثالا يقتدى به. والعوام الذين يسرون خلفه على سلس.

يحسب لبومالة أنه تحول إلى رمز من رموز الحراك، لم يصنع داخله، بل طوره النظام ليصبح كذلك، بعد أن ربي فيه وهم الحضور وبلاغة الكلام والقول، وأوصله إلى حد أن اعتبر نفسه حسب تصريحه لحظة خروجه من السجن شبيها بـ"النبي يوسف، بري من الذنب ولم يبرأ من إخوانه"، حين رد أنه "إنسان حر". وهذه لعبة أخرى يجيدها النظام ببراعة.

التأثير ينفذ ولا يقدر أن يحرك شيئا. الضغط سيكون من هناك في حلقات ذكر وسماح وانتباهات شفافة ومزينة بحقوق ومبادئ الإنسان والخوف على الكرامة والحرية.

التأثير ينفذ ولا يقدر أن يحرك شيئا. الضغط سيكون من هناك في حلقات ذكر وسماح وانتباهات شفافة ومزينة بحقوق ومبادئ الإنسان والخوف على الكرامة والحرية.